تجربة عبد الرحمان الحاج صالح في إحياء المصطلح العلمي التراثي
–نحو طريق جديد للمصطلح اللساني وتأصيل لسانيات العربية–

Abd al-Rahman al-Haj Saleh'sexperience in revivingthescientifictermheritage
-A newpathtothelinguisticterm and the root ofArablinguistics-

الاسم الكامل [1]، عائشة برارات

[1]جامعة غرداية، bararat.aicha@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 10/18 /2022 تاريخ القبول: 10/24 /2022 تاريخ النشر: 2022/12/25

ملخص: تمثّل النظرية الخليلية الحديثة امتدادا لنظرية النحو العربي الأصيلة حاول من خلالها عبد الرحمان الحاج صالح إحياء المصطلح العلمي التراثي نحو طريق جديد للمصطلح اللساني وتأصيل لسانيات العربية، فالتراث اللغوي العربي القديم له قيمته الإبداعية المعرفية، والمنهجية والإنتاجية، لذا يجب تعزيز الوعي بهذه القيمة في مقابل الآخر (النظريات الغربية) بالأدلة العلمية وبالمقارنة الموضوعية التوضيحية، وعلى هذا فإنّ (الوضع والاستعمال) من المصطلحات الأساسية التي تقوم عليها باقي المفاهيم في النظرية الخليلية، وهي العمود الفقري لأيّ لغة، والمدخل لقراءة التراث اللغوي العربي قراءة دقيقة أصيلة، والأداة الإجرائية لضبط المصطلح وترجمته.

كلمات مفتاحية: التراث، المصطلح اللساني، لسانيات العربية، النحو، الوضع، الاستعمال

Abstract The modern theory of El Khalilrepresents an extension of the theory of authentic Arabic grammar through which Abdul Rahman al-Haj Saleh tried to revive the traditional scientific term towards a new way of linguistic terminology and the rooting of Arabic linguistics. The ancient Arabic linguistic heritage has its cognitive, methodological and productive creative value, so the awareness of this value should be strengthened in relation to the other (Western theories) with scientific evidence and an illustrative objective comparison. Thus, (code and usage) are one of the basic terms on which the rest of the concepts of Khalili theory are based, which is the backbone of any language, the entry to an accurate and authentic reading of the Arabic linguistic heritage, and the procedural tool to adjust the term and translate it.

Keywords: Heritage, linguistic terminology, Arabic linguistics, grammar, code, usage**.**

المؤلف المرسل: عائشة برارات **الإيميل**: bararat.aicha@univ-ghardaia.dz

1.مقدمة :

ننطلق في هذه المداخلة من تبيين موقف الدارسين العرب حول علاقة اللسانيات – ذلك العلم الغربي المنشأ الدخيل– بما أنتجته العقلية العربية من تراث أصيل، وهو موقف متباين إلى حدّ بعيد، حيث نجد الانبهار والتماهي من جهة ، ومن جهة أخرى نجد التعصّب والتقديس ومن جهة ثالثة نجد الاعتدال والوسطية بين القديم والحديث، وها هو الزايدي بودارمة يحاول عرض هذا الموقف من خلال قوله: "إنّ الناظر في تاريخ اللسانيات العربية الحديثة يجد أنّ جلّ اللسانيين العرب المحدثين قد تماهوا تماهيا يكاد يكون كليا في المنجز اللساني الغربي بمختلف مدارسه وتوجهاته، وكما كان لهذا التماهي آثاره الإيجابيّة (معرفة أوجه نظر جديدة إلى اللغة لا توجد في التراث) فقد كان له آثاره السلبية التي من أبرزها الانبهار بهذا المنجز ومن ثمّة التّقليل من قيمة المنجز اللغوي العربي التراثي على الرغم من الاطلاع المحدود عليه حيث صار يقيّم هذا المنجز بما توصل إليه الدرس الغربي؛ فما وافقه فهو العلمي الذي ينبغي الأخذ به والتّنويه بقيمته، وما لم يوافقه حُكِم عليه بعدم العلميّة، ومن ثمّة يجب رفضه وردّه وكأنّ العلميّة حكْر على هذا الوافد...ولكن لا يمكن تعميم هذا الواقع على كلّ المنجزات اللسانيّة العربية، فقد ظهرت بعض التوجّهات جعلت العلم الأصيل المؤيد بالدليل (قديما كان أم حديثا) منطلقا لها، فلم تقزّم القديم ولم تعظّم الحديث، بل حاولت فتح باب الاستفادة من كليهما، جاعلة منطلقها المنجز التراثي لعلميته، وخصوصية النظر فيه، وارتباطه باللغة العربية"(بودارمة، 2014، صفحة 65/46) ، ومن هذه المنجزات ما أبدعه عبد الرحمان الحاج صالح في النظرية الخليلية ، فكيف كانت نظرته إلى المصطلح العلمي التراثي؟ وما المعايير التي طبّقها لإحيائه؟ وكيف يساعد توظيف المصطلح التراثي في الوعي بقيمة هذه المنجزات؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة ارتأينا أن تكون خطة البحث كالآتي:

– الحديث عن الغربة المسلطة على التراث العربي العلمي التي تتجلى في بعض الدراسات حول التراث ومافيها من هنات.

– البحث في الخطوات العلمية إلى تأسيس الخطاب اللساني العربي، عن طريق الجمع بين الأصالة والعصرنة.

– عرض مقترح مشاريع جزائرية في الترجمة والمصطلح، في إطار التكوين والشمولية والنجاعة.

–تأكيد الوعي بقيمة المصطلحات التراثية في الخطاب اللسانيواستثمارها استثمارا ناجحا.

-عرض تجربي في تدريس المصطلح اللساني عند عبد الرحمان الحاج صالح من خلال مجموعة من الملاحظات الأولية والإجراءات.

ومن خلال هذه العناصر تحدّدت الأهداف المتوخى تحقيقها فيمايلي:

- الكشف عن خصوصية النظرية الخليلية وتجلّي ذلك في الجهاز المصطلحي والمفاهيمي الذي قامت عليه، والذي يضاهي - في كثير من الأحيان- ما جاءت به النظريات الغربية.

- السعي إلى إبراز مكانة النظرية الخليلية في الدراسات اللسانية الحديثة نظرا لاعتمادها على مجموعة من الآليات التفسيرية والإجرائية.

- تأكيد الوعي بالتراث اللغوي العربي القديم وقيمته الإبداعية المعرفية، والمنهجية، والإنتاجية، في مقابل المنجز الغربي.

2.الغربة المسلطة على التراث العربي العلمي:

يقول الحاج صالح: "ومن الغريب جدا أن تكون هذه الأعمال التي لا تقلّ أهميّة عن أعمال أكبر العلماء المحدثين في العلوم الأخرى مجهولة تماما عند أكثر النّاس، بل ومجهولة في كنهها وجوهرها عند كثير من الاختصاصيّين المعاصرين"(الحاج صالح، 2007، صفحة 208)

وتبدأ الغربة المسلّطة على التراث من أبنائه قبل أعدائه، فالكثير من البحوث التي يجريها اللغويون العرب على محتوى التراث اللغوي هي في نظر عبد الرحمان الحاج صالح تتّصف بهذه الهنات:

- التبنّي دون نظر سابق لما جاءنا من الغرب من الأقوال والمذاهب اللغوية بدعوى أنّ هذه الأقوال هي آخر ما توصّل إليه العلم الحديث، وأنّ الباحثين العرب لم يبلغوا بعد-لقلّتهم وقرْب عهْدهم بالبحث- مستوى الاجتهاد.
- هذا القصور وقلّة الإلمام بكلّ ما يجب العلم به، يؤدّي إلى التعصّب لمذهب غربيّ واحد لكون هذا الباحث قد تخرج على يد ذاك العالم الغربي صاحب المذهب المعني به، فلا يريد به بديلا، ويعتقد أشدّ الاعتقاد أنّ كلّ ما يقوله غيره فهو من سفاسف الكلام وأباطيله.
- تجاهل بعض الباحثين للتراث العلمي العربي في ميدان اللغة وخصوصا ما اختص به العرب دون غيرهم وما أبدعوه من المفاهيم ولم يوجد ما يقابله في التراث الفكري اليوناني اللاتيني ولا في المذاهب

اللغوية الغربية الحديثة، وهذا التجاهل ناتج بالطبع عن جهل أولا لجوهر المفاهيم والتصورات العربية، وثانيا للاعتقاد الراسخ عند أكثر المحدثين أن ما ظهر عند العرب من الأفكار ولم يثبته اللغويون الغربيون فلا قيمة علمية له(الحاج صالح، 2007، صفحة 14/13).

ويؤكّد في موضع آخر ضرورة إعادة الاعتبار لما أبدعه هؤلاء من منطلق أنّ التراث العربي العلمي لا يكوّن عبر الزمان كُلاّ منسجما، أمّا تلك التسوية فلها أسبابها، منها:

" أولا: هذه المعرفة السطحية للتراث وللمفاهيم العلمية الحديثة بما فيها العلوم الدقيقة وعلم المعرفة العلمية (الابستمولوجيّة)، وثانيا: استغلاق ما تركه الفطاحل من علماء الصدر الأوّل على أفهام الكثير من المتأخّرين والمحدثين (وقد يكون ذلك مسببا بالسبب السابق)، ثالثا: الخضوع المطلق لما قاله الغربيّون في القرن الماضي (حتى نهاية النّصف الأوّل من القرن العشرين) أن تطوّر المعرفة هو خطي تسلسلي: من البدائي إلى ما هو أرقى منه (أوغست كونت الفرنسي) ، وهذا غير صحيح بالنّسبة إلى الفكرة العلمية الواحدة؛ لأنّ الرقيّ العلمي قد يتحقّق عند قوم فجأة في وقت ما لبعض الأسباب، ثم يتوقّف عندهم الإبداع وتختفي بعض الأفكار، ثم يكتشفها غيرهم من جديد ربما في إطار تاريخي آخر وتصوّر آخر عند غيرهم بعد زمان، وقد يكون طويلا" (الحاج صالح، 2007، صفحة 45/ج2)، وفي هذا دعوة إلى الوعي بقيمة التراث اللغوي العربي الأصيل في مراحل رقيّه العلمي.

وهذا ما أشار إليه عبد السلام المسدي ، مِن أنّ التراث اللغوي العربي هو قبل كلّ شيء جزء من التراث الانساني، نقرأه قراءة معاصرة تقتضي استيعابا مزدوجا طرفه الأول معطيات التراث من جهة، وطرفه الثاني ما أفرزه العلم الحديث من جهة أخرى، ومتى توفّرت المعادلة بطرفيها تسنّى إجراء قراءة جدلية خصيبة تُخرج لنا ثمارا مفهومية جديدة وحصيلة معرفية متفرّدة ليست صورة مشوّهة للتراث ولا صورة منسلخة من اللسانيات ، وإنما هي عطاء نوعي بلا قادح، وهكذا كان الفكر العربي في نفس الوقت حلقة وصْل ومنطلق خلْق ، وصانع تاريخ وهذا يتمّ في ظل إقامة حوار معرفي مع التراث(المسدي، 2010، صفحة 29/28) ، وعلى هذا يجب التصدي لكلّ محاولات التغييب بكلّ أشكالها، ولا يكفي هذا حتى نقرأ تراثنا قراءة واعية مبنية على إقامة الدليل.

3.خطوات علمية إلى تأسيس الخطاب اللساني العربي

إنها" نظرية تجمع بين الأصالة القديمة ممثلة في استيحاء أفكار ومفاهيم الخليل وسيبويه والحداثة ممثّلة في انتقاء ما يتآلف ويتقارب من تلك الأفكار والمفاهيم، مكوّنه بذلك نظرية متماسكة، قديمة في أصولها،

حديثة في منهجها وتوجّهها العلمي والتكنولوجي، لها مفاهيمها العلمية التي تكوّن كفايتها العلمية، ولها مبادؤها التي تكوّن كفايتها المراسية التطبيقية"(بعيطيش، 2010، صفحة 77) ، وقلّما تجتمع الكفايتين العلمية والعملية في نظرية واحدة تتّسم بالأصالة أولا، ويمكن استثمارها استثمارا ناجحا في ضوء النظريات الحديثة ثانيا .

ومن خلال هذا يمكن رصد خطوات هذه الكفاية العلمية في الخطوات فيمايلي:

–ينطلق عبد الرحمان الحاج صالح من فكرة إعادة إحياء الفكر اللغوي التراثي وإخضاعهأو تطويره حتى يتوافق ومتطلبات الرؤية الحديثة.

–عدم التشكيك في التراث اللغوي العربي والتعامل معه دون تقزيم، أو تقليص، أو انبهار أو تقديس، أو التسليم المطلق بما جاءت به النظرية الغربية.

–إنّ النظريّة الخليلية تراعي خصوصية اللغة العربية، ولذلك فهي تعكس في وصفها بنية ونظام اللغة العربية، بخلاف النظريات الأخرى .

–يجب البحث عن أصول المفاهيم الغربية للتّمييز بين ما هو جديد، وما هو قديم لم تأت به العلوم ولا التقنيات الحديثة؛ أي: النظر في إشكالية الأصالة والإبداع.

–يجب الاعتراف بالفوارق الكبيرة بين النظريات الغربية ونظريات التراث اللغوي العربي وفق التّصورات العلمية.

من هنا ينطلق عبد الرحمن الحاج صالح في دراسته للتراث اللغوي العربي العلمي من تمحيص دقيق لما وصلنا منه، محاولا فهْم واستيعاب القضايا اللغوية التي تركها الأوّلون– منذ ما يقرب من ثلاثين سنة–، متتبعا فيها آراء الخليل وأتباعه من الرعيل الأول من النحاة ، إيمانا " بوجود نظرية دقيقة في أصولها ومفاهيمها في النحو العربي الأصيل فيما تركه لنا أمثال الخليل وسيبويه ومن تلاهما، ويتّضح ذلك بإعادة قراءة التراث ليس على ضوء النظريات الحديثة فقط وإنما بدراسة إبستمولوجية دقيقة لمفاهيم النحاة وتصوراتهم، وبدون إسقاط أي تصوّر أخر لتصوّر النحاة العرب المتأخرين أو تصوّر الغربيين عليها"(الملخ، 2000، صفحة 247)، إنه التأكيد على الدراسة العلمية الدقيقة التي تنظر إلى المرجعيات والخصوصيات.

لقد أعطى عبد الرحمان الحاج صالح الأهمية البالغة لهذه النظرية التي تبحث في التراث اللغوي العربي، ذلك أنها تنطوي على قيمة علمية تُسهم في تطوير البحث اللساني العربي وتوجيهه مع مراعاة الخصوصية. وعلى هذا يجب عقد حوار مع المناهج الحديثة من غير حصر النحو في منهج واحد(التوليدي) بشرط ألا تكون المناهج الحديثة معايير تقويم بل أساليب استئناس(الملخ، 2000، صفحة 251) ، فلا ننكر ضرورة العودة إلى التراث، ولا نوقع أنفسنا في خطورة التماهي مع النظريات الحديثة .

وهكذا فقد "اتجهت النظرية الخليلية الحديثة إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي الأصيل والبحث عن خباياه، لا حبّا للقديم في ذاته، ولا محافظة من أجل المحافظة، ولكن بغية التنبيه إلى الطفرة التلقائية المفاجئة التي أحدثها سيبويه وشيوخه وتلاميذه في تاريخ علوم اللسان البشري بعد أن تحامل عليهم كثير من الدارسين الذين تأثّروا بالمناهج الغربية الحديثة"(صاري، 2005، صفحة 10/9) ، من أجل ذلك اقترح عبد الرحمان الحاج صالح مشاريع جزائرية في الترجمة والمصطلح للتمكّن من مسايرة التقدّم التكنولوجي، وعصرنة التراث علميا وعمليا.

4. مقترح مشاريع جزائرية في الترجمة والمصطلح

يقترح عبد الرحمان الحاج صالح مشروعين جزائريين يرميان إلى حلّ جذري لمشكلة المصطلح والترجمة في العالم العربي :

1.4. مشروع تكوين اختصاصيين في علم المصطلحات والترجمة المتخصصة:

يحدّد عبد الرحمان الحاج صالح هدف هذا المشروع، والمتمثل في سدّ الفراغ المهول والخطير في الوطن العربي والذي بإمكانه عرقلة النمو العلمي والتكنولوجي أو إيقافه، ويتمثل هذا الفراغ في عدم وجود مترجمين متخصصين في نقل العلوم والتكنولوجيا(الحاج صالح، 2007، صفحة 372/ج1) ؛ حيث يوضّح الحاج صالح إمكانية معالجة ذلك ابتداءً بضرورة استرجاع اللغة العربية لمكانتها الأصلية من خلال تعميم استعمالها الذي يقتضي التعريب الشامل للتعليم، وعموما لكلّ تكوين أيّا كان بكيفية دائمة ومنتظمة.

من هنا يبيّن المراحل الإجرائية لهذا المشروع فيمايلي(الحاج صالح، 2007، صفحة 374/372):

- إنّ التكوين بالعربية لا بدّ أن يعتمد كتب ومراجع محرّرة بنفس اللغة، وهذا مالا يتوفر خصوصا في الميادين العلمية الدقيقة. ومن ثمّ يجب أن يكون الإنتاج لهذه الكتب كافيا .

•التحذير من انزلاق خطير يتمثل في الاعتقاد بالاكتفاء الذاتي في ميدان العلوم الذي يؤدّي إلى التقوقع والانغلاق.

•مرحلة الإعداد على نطاق واسع لعدد كبير من المترجمين المتخصصين في نقل العلوم. وفي ذلك زيادة ضمان للتجدّد المستمر للمعلومات.

2.4. شمولية البحث شرط لنجاعته: مشروع الذخيرة اللغوية:

يرى الحاج صالح أنّ البحث عن المصطلحات في الاستعمال الحالي لتجميعها وتوحيدها من جهة، والبحث في وضع المصطلحات من جهة أخرى لم يخرج بعد عن طور البحث الفردي اليدوي(الحاج صالح، 2007، صفحة 376/ج1)، لهذا نجده يقترح بخصوص استعمال المصطلحات ووضعها ما يلي :

•القيام بمسْح كامل شامل لكلّ ما يجري استعماله في جميع المؤسسات العلمية كالجامعات والمعاهد ومراكز البحث والمصانع وورشات العمل... وسائر الأماكن التي يختصّ التخاطب فيها بلغة فنية معينة، وذلك بإجراء التحريات الميدانية الواسعة(الحاج صالح، 2007، صفحة 377/ج1).

•يحتاج واضع المصطلحات إلى بنك من النصوص تستخرج منه قاموس كبير تجمع فيه وترتّب جميع الألفاظ العربية التي وردت في الاستعمال الفعلي، أي في النصوص التي وصلتنا مع عدد كبير جدا من السياقات والقرائن من الشعر الجاهلي حتى الصحف في عصرنا الحالي، وهذا لا يتمّ إلا بتنظيم وتكافل الأعمال بالآلات المهيئة لذلك(الحاج صالح، 2007، صفحة 379/ج1).

إنّ الشمولية والاهتمام بالمصطلحات من الإجراءات الأساسية التي تساهم في الوعي بقيمة التراث في الخطاب اللساني، وذلك كفيل بتحقيق الارتقاء والتطوير المنشود.

5.الوعي بقيمة المصطلحات التراثية في الخطاب اللساني

إنّ التراث اللغوي العربي القديم له قيمته الإبداعية المعرفية، والمنهجية، والإنتاجية لذا ينبغي أن ينظر إليه نظرة علمية تليق به دون صراع مفتعل أو تقزيم ينبئ عن جهل، فالأصالة اللغوية العربية والمعاصرة اللسانية قضيتان متكاملتان، إنهما أساس أيّ مشروع حضاري قائم على الحوار، موضوعه دراسة اللغة دراسة علمية، وهذا كان الهدف الذي دافع عنه عبد الرحمان الحاج صالح دائما، فلم يدّخر جهدا في إبراز القيمة العلمية للتراث بدءا من المصطلحات الواردة فيه، لتكون مفاتيح في الخطاب اللساني .

•**الوضع والاستعمال**: يمكننا القول بأنّ هذين المصطلحين من المصطلحات التي تمتاز بالمرونة والانفتاح، حيث أكدّ عبد الرحمن الحاج صالح على أنّ الأوائل من النحاة العرب كانوا أكثر اهتماما "بالاستعمال الحقيقي للغة والرصد لتصرّفات الناطقين في التخاطب العفوي ومن ثمّ لأوضاع اللغة، وذلك إلى حدّ بعيد جدا: بالتقديم، والتأخير، والقلب، والحذوف الكثيرة والاختزال، والاختلاس، وإضمار المبتدأ والخبر، وغير ذلك مما كثر مجيئه في الكتاب"(الحاج صالح، 2007، صفحة 301/ج1).

وعلى هذا الأساس يقوم بضبط المصطلح، فالوضع هو "مجموعة منسجمة من الدوال والمدلولات ذات بنية عامة ثم بنى جزئية...؛ أي ما يثبته العقل من انسجام وتناسب بين بعض العناصر اللغوية والعلاقات التي تربطها، ومن جهة أخرى ما يثبته من تناسب بين العمليات المحدثة لتلك العناصر على شكل تفريعي أو توليدي (من الأصول إلى الفروع)"(الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، 1973، صفحة 38).

أمّا الاستعمال فهو "كيفية إجراء الناطقين لهذا الوضع في واقع الخطاب، وليس كل ما هو موجود في الوضع يخرج إلى الوجود في الاستعمال، كما أنه ليس كل ما يقتضيه القياس يحصل في الكلام"(الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، 1973، صفحة 38)

إنّ ثنائية (الوضع والاستعمال) لوحدها تحتاج إلى استفاضة، ولهذا أفرد لها الحاج صالح كتاب(الخطاب والتخاطب) ، إنها تعكس ثنائية متكاملة (النظام، والاستخدام) ، ذلك أنّ اللغة كلّها وضع واستعمال ؛ "أي نظام من الأدلة المتواضع عليها واستخدام لهذا النظام ، وليست نظاما فقط ينظر فيه الباحث دون أن يفكّر في كيفية استخدام المتكلم له كوسيلة تبليغ أولا وكوسيلة اندماج في واقع الحياة ثانيا"(الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 90/ج2) ، لذلك" كان الوضع كلّ ما يثبته العقل من انسجام وتناسب بين العناصر اللغوية وعلاقتها الرابطة وبين العمليات المحدثة لهذا الوضع في واقع خطابي على شكل تفريعي أو توليدي من الأصل إلى الفرع ، أمّا الاستعمال فهو ما يختاره المتكلم من هذه الأدلة الموضوعة للتعبير عن أغراضه فيميّز بين ما هو راجع للقياس ، وبين ما هو راجع للاستعمال بحسب ما تقتضيه أحوال الخطاب"(قدور، 2019، صفحة 82) ، إنها نقطة تقارب تجمع بين النظريات الغربية التي ظهرت على أنقاض بعض، ففي الوقت الذي أقصت فيه البنوية مظاهر الاستعمال بحكْم أنّه من الأشياء الخارجية التي لا تدخل في نطاق الدراسة العلمية للغة، جعلت التداولية غايتها النظر في الاستعمالات اللغوية لا مجرّد الاكتفاء بالوصف اللغوي، إلا أنّ هذا الاضطراب لم يكن

واردا في التراث اللغوي العربي بل كان توظيف هذه الثنائية في غاية الانسجام والتكامل ، فقوانين الوضع مبنية على قواعد النحو؛ أي يمكن وصفها بأنها بنوية وقوانين الاستعمال مبنية على الإفادة؛ أي إنها تطابق التداولية(وهي أحدث النظريات الغربية على الإطلاق) .

•**الاستقامة:** مصطلح مفاده التمييز المطلق بين اللفظ والمعنى، حيث يتمّ التفريق بين السلامة التي يقتضيها القياس؛ أي النظام العام الذي يميّز لغة من لغة أخرى، والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين، وهذا معنى الاستحسان، وهو استحسان الناطقين أنفسهم (مستقيم/ حسن)(الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 218/ج1) ، على هذا يكون التمييز بهذه الكيفية:

–مستقيم حسن = سليم في القياس والاستعمال.

–المستقيم القبيح= السليم في القياس وغير السليم في الاستعمال.

–المستقيم المحال= سليم في القياس والاستعمال، غير سليم من حيث المعنى.

فحين وضع سيبويه هذا التقسيم " قد بيّن أنّ اللفظ والمعنى ينفرد كلّ واحد عن الآخر بالاستقامة أو عدم الاستقامة ، تخصّه هو دون الآخر، فقد يكون اللفظ سليما ليس فيه خطأ من حيث هو لغة ، أو صيغة أو تركيب ، أو أصوات ؛ أي من حيث النحو والصرف والمعجم والآداء ، ويكون المعنى مع ذلك غير سليم غير معقول أو غير صحيح أو العكس... فالنحاة يفرقون بين ما راجع إلا استقامة اللفظ ، وما يخصّ استقامة المعنى فالأول إما من ناحية سلامته من اللحن ، أو من حيث الشذوذ في القياس والاستعمال، والثاني هو من حيث السلامة من الكذب أو من الإحالة... فسلامة اللفظ لا تلزم منه سلامة المعنى والعكس"(الحاج صالح ع.، 2012، صفحة 114/113) ، وبالتالي تتّضح خصوصية كلّ منهما في التحوّل والتغيّر من حالة إلى حالة أخرى.

بناءً على هذا تكون لدينا ثنائية متكاملة هي ثنائية (الاستقامة والاستحسان)، فإذا كانت النظريات الحديثة قد ركّزت على الجانب الأول المتعلق بالنظام وآلية عمله دون النظر إلى أشياء أخرى، فالنظام وحده لا يكفي، بل التفت علماء العربية إلى ما أسموه بالاستحسان لتصبح اللغة راهنا وواقعا مستعملا لا شكلا صوريا مجرّدا محفوظا في الذهن، بما يحقق وظيفتها التفاعلية .

•**الانفراد وحدّ اللفظة:** يمثّل الانفراد طريقة النحاة القدامى في ضبط وحدات اللغة سواء جملا أو ألفاظ، والتبرير لها بالاعتماد على اللغة ذاتها بإقحام شيء مفترض كما هو الحال في النظريات اللسانيات الحديثة مثل التوليدية. أما مصطلح اللفظة فيعني الكلمة التي يمكن انفرادها، كما تعني الكلمة بلواحقها التي لا تخرجها عن بابها مع امكان نيابتها عن تلك الكلمة المنفردة. وإذا أردنا التوضيح بمثال نأخذ: الاسم الذي قد يكون كلمة مفردة وقد تدخل عليه زوائد لكن لا تخرجه عن حدّ الاسمية، التي تتّسم بالانفصال والابتداء مثل: الطالب المتخلّق الذي تفوّق اليوم. لفظة واحدة مكونة من مجموعة كلمات، ولكن بقي الاسم على حاله ولم تخرجه عن بابه(دين، 2018، صفحة 31/30).

ويخضع مصطلح اللفظة إلى مبدأ الانفصال والابتداء، وإمكانية تحمّل الزيادات؛ أي معرفة أصل اللفظة وما يطرأ عليها من تغييرات بالزيادة؛ "فكلّ ما ينفصل ويبتدئ به هو مفردة أو كلمة أي أصل تتولّد عنه الفروع. ومن هنا، صار من الضروري أن يتّخذ مبدأ الانفصال والابتداء معيارا أساسيا لتحديد أقل ما ينطق به؛ أي الكلمة"(العلوي، 2007، صفحة 6) ، فقد سمّى النحاة العرب الأصل بالنواة(الاسم المفرد)، وهذه النواة قد تقبل الزيادة فتكون متمكّنة، وقد لا تقبل هذه الزيادة فتكون غير متمكّنة، وعلى هذا الأساس تم تصنيف الأسماء في اللغة العربية؛ ذلك بأنّ النحاة قد "سمّوا هذه القابلية بـ(التمكّن)، ولاحظوا أيضا أنّ لهذا التمكّن درجات، فهناك اسم الجنس المتصرّف، وهو المتمكّن الأمكن ثم الممنوع من الصرف، فهو المتمكّن غير الأمكن ، ثم المبني ، فهو غير المتمكّن ولا أمكن"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 220/ج1)

من هنا كان علماء العربية على قدْر كبير في تمييز العناصر بعضها عن بعض، "وعلى هذا، فالكلمة كاصطلاح نحوي ليست دائما مورفيما أقلّ ما ينطق به مما يدلّ على معنى ، بل هي العنصر الدال الذي يمكن أن يحذف من اللفظة دون أيّ ضرر أو تغيير للعبارة، وهو الكلمة ، كالحذف لحرف الجر، فخروجه لا يسبب تلاشي الاسم، وبين العنصر الدال الذي إذا حذف أو استبدل بشيء آخر تلاشت العبارة التي يدخل فيها، وذلك كالتاء في (افتعل) وحروف المضارعة فهذه مورفيمات، ولكنها ليست كَلِمًا لأنها عناصر داخلة في صيغة الكلم فهي من مكوّنات الكلمة ، وليست من مكوّنات اللفظة، وليس لها الاستقلال النوعي للكلم"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 221/ج1).

•**العامل:** يرتبط مفهومه في هذه النظرية بالبنية التركيبية للجملة، فالعامل هو المحرّك الرئيس لعناصرها والموجّه لعلاقاتها ولإسناد الحركات الإعرابية المناسبة لها.(دين، 2018، صفحة 31).

انطلاقا من هذا يؤكّد عبد الرحمان الحاج صالح أنّ "نظرية العامل هي الآن أكثر النظريات العلمية طواعية للصياغة الرياضية وأوفقها بالتالي لما تقتضيه المعالجة الآلية على الحاسبات الإلكترونية، ولسنا في ذلك مجازفين، إذ قد يحاول الآن اللسانيون الأمريكان خاصة أن يطوّعوا مفاهيم النحو التوليدي لهذا الغرض ولم يوفقوا كل التوفيق لفقدان هذا النحو للمفاهيم التي ذكرناها. وتوجد عند بعض العلماء الأوربيين بعضها، وذلك مثل مفهوم العامل والمعمول ومفهوم اللفظة لكن بدون تفريغ منتظم مثل ما هو موجود في النحو العربي"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، الصفحات 288-289/ج1).

•**الباب**: لاحظ الحاج صالح أنّ سيبويه قد أكثر من استعمال هذا المصطلح ، فهو يرتبط بمستويات اللغة المختلفة ؛ مستوى الصوت ، ومستوى المفردة (الأبنية) ومستوى التركيب وبذلك يعتبر من المصطلحات المفاتيح التي تمكننا من معرفة الأغراض الحقيقية حول ما قيل في العربية ، حيث يرى عبد الرحمان الحاج صالح أن المقصود به "مجموعة من العناصر تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعهما بنية واحدة وكونها مجموعة بالمعنى المنطقي الرياضي لا مجرد جنس بالمعنى الأرسطي، هو أنّ أفراد الباب تجمعها صيغة أو مجرى لا صفة فقط كما هو الشأن في الجنس"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 318/ج1) ، وهنا يميّز الحاج صالح بين المصطلحين: الباب، والجنس؛ من حيث إنّ "الجنس صنف له صفة مميزة، إلا أنّ القدْر المشترك بين أفراد الباب الواحد ليس مجرّد صفة، بل بنية تحصل وتكتشف في نفس الوقت بحمْل كلّ فرْد على الآخرين لتتراءى فيها هذه البنية، فهذه العملية ليست تجريدا بسيطا"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 318/ج1) ، يتّضح ذلك من خلال قاعدتين أساسيتين:

–الأولى: الثوابت والمتغيرات، فالثوابت هي الحركات والسكنات، والزوائد، أمّا المتغيّرات فهي الحروف الأصول.

–الثانية: التكافؤ(الفئة) والترتيب (النظم)، وهي عملية تجريدية تؤدّي إلى ظهور المثال بوصفه حدّا إجرائيا .

ف "ما يميّز الباب هو صفة العموم، فلا يُنظر إلى مجموعة الأفراد التي تنتمي إلى الباب الواحد من ناحية صفاتها الذاتية بل من ناحية المسار الذي تسير عليه؛ أي إنّ هذه الأفراد لا تعرف بانتمائها إلى جنس فقط بل لمساواتها لأفراد بابه، أو لعناصر تنتمي إلى فئات مختلفة فالعلاقة بين عناصر الباب لا تنحصر في الانتماء المجرّد إلى الجنس فقط بل بمساواته لأفراد بابه، إنه يتحدّد بالقسمة التركيبية"(قدور، 2019، صفحة 72).

•**المثال:** يُعتبر مفهوما منطقيا رياضيا، وهو وزن الكلمة، ومكوّن من عمليتين: العملية الأولى تضمّ الحروف الأصلية للكلمة. أمّا الثانية تهتمّ بالعلامة العدمية؛ أي التغيرات الطارئة على الكلمة من خلال دخول الزوائد عليها(قدور، 2019، صفحة 31).

لقد وصف عبد الرحمان الحاج صالح هذا المصطلح بكونه فريدا عند العرب، لا يوجد له مقابل في اللسانيات الغربية، وهو حدّ صوري إجرائي تتحدّد به العمليات المحدثة للوحدات ومن ثمّ المحددة لها من وجهة نظر النحو تنتج عنه صورة تفريعية طردية عكسية تنطلق من أصل إلى ما لا نهاية من فروع ويسميها نحاتنا المتقدّمون مثالا(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 251/ج1) ، فالمثال "هو مجموع الرموز المرتّبة التي تمثل بها بنية الباب، وفائدتها عظيمة إذ هو تمثيل علمي للواقع غايته الجمع في باب واحد بين عناصر مختلفة بالكشف عن أهمّ شيء فيها وفي صيغتها المشتركة لا صفتها الذاتية فقط، فالواقع يصير هكذا أكثر انضباطا وأكثر معقولية.(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 319/ج1).

إنّ هذا المصطلح ينطبق على كلّ مستويات اللغة، فلا يقتصر على اللفظة دون غيرها ذلك أنّ "النحو كلّه مُثل لأنها الصيغ والرسوم –وهو شيء صوري– التي تبنى عليها كلّ وحدات اللغة إفرادا وتركيبا. فهي تصوير وتمثيل لما تحدثه الحدود الإجرائية"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 251/ج1).

فإذا أردنا أن نطبّق هذا المفهوم على الكلمة مثلا، وجدنا أن مثالها هو بناؤها ووزنها؛ لأنه الهيئة الذي تبدو عليه الكلمة من الناحية الشكلية الصورية، فمثال الكلمة بهذا الاعتبار هو "مجموع الحروف الأصلية والزائدة مع حركاتها وسكناتها كلّ في موضعه، وهو البناء أو وزن الكلمة (مثال الكلمة)، وفي مستوى اللفظة: مجموع الكَلِم الأصلية والزائدة مع مراعاة دخول الزوائد وعدم دخولها (العلامة العدمية) كل في موضعه. وهو مثال اللفظة اسمية كانت أم فعلية"(إبرير، 2005، صفحة 4).

•**الموضع والعلامة العدمية:** الموضع وهو ما يمثل المحلّ الذي يمكن أن يوضع فيه عنصر من العناصر المؤثرة، فإذا لم يحمل ذلك المحلّ عنصرا سُمّي علامة عدمية، وهي التي تختفي في موضع لمقابلتها لعلامة ظاهرة في موضع آخر(دين، 2018، صفحة 31).

وهذا المفهوم له علاقة بمفهوم الانفراد، فقد مرّ بنا أنّ اللفظة الأصل يمكن أن تقبل زيادات إما قبلها أو بعدها، وهذه الزيادات لها موضع خاص بها، فإذا أخذنا الاسم على سبيل المثال نجد أنه تلتصق به علامات تقع قبله كـ: حرف الجر، و(ال) التعريف، ونجد علامات أخرى تقع بعده كـ: التنوين، والصفة، والإضافة. فالموضع إذا مفهوم، أو لنقل: محلّ تجريدي تقع فيه العناصر المرتبطة باللفظة الأصل، "وعلى هذا الأساس فإنّ المواضع التي تحتلّها الكلم هي خانات تحدّد بالتحويلات التفريعية؛ أي الانتقال من الأصل إلى مختلف الفروع بالزيادة التدريجية، وهذه الزيادة هي نفس التحويل في هذا المستوى"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 221/ج1).

وفي المقابل، فإنّ خلوّ الموضع من العناصر التي يمكن زيادتها على اللفظة من اليمين أو اليسار يسمى (الخلوّ من العلامة) عند النحاة، ويصطلح عليها الحاج صالح بـ: العلامة العدمية، "وهي التي تختفي في موضع لمقابلتها لعلامة ظاهرة في موضع آخر وذلك كجميع العلامات التي تميز الفروع عن أصولها (المفرد ، والمذكر، والمكبّر لها علامات غير ظاهرة بالنسبة للجمع والمثنى، والمؤنث، والمصغّر (، وكذلك هو الأمر بالنسبة للعامل فإنّ العامل الذي ليس له لفظ ظاهر هو الابتداء"(الحاج صالح ع.، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 2007، صفحة 222/ج1).

إنّ مقارنة بسيطة بين هذا المفهوم الخليلي وما قدّمته المدارس اللسانية الغربية الحديثة تبيّن أنّ النحو الخليلي أكثر دقة من التحليل إلى المركبات المباشرة الذي عوّل عليه البنويون والوظيفيون، بينما يقترب منه بعض الشيء التحليل التحويلي مع فارق أنّ التحليل الخليلي يتّجه من الأصول إلى الفروع ،أمّا التحليل التحويلي باستعماله التشجير فإنه ينطلق من الفروع للوصول إلى الأصل ، فأهمّ فرقٍ، إذًا، يميز النظرية الخليلية عن اللسانيات الغربية هو منهج تحديد الوحدات إذ يسلّط الغربيون البنويون على الخطاب أداة التقطيع لاستخراج الوحدات. ويلجأ التوليديون إلى التحويل لأجل تدارك نقائص التحليل إلى المكوّنات المباشرة وتفسير الغموض الناجم عن بعض التراكيب كالتركيب المبني للمجهول. وأمّا النحاة العرب، فإنهم

ينطلقون من هذه التحويلات لأجل تحديد الوحدات حيث يحملون القطع القابلة للانفراد أي للابتداء والانفصال بعضها على بعض، فتنعكس التبعية، ويدرك التابع من المتبوع، وتنجلي المواضع التي تختص بها كل وحدة(معزوز، 2017، صفحة 232/231).

6.تجربي في تدريس المصطلح اللساني عند عبد الرحمان الحاج صالح

إنّ الحديث عن تجربتي في تدريس النظرية الخليلية هي من باب الإجابة عن السؤال التالي: هل أعطينا هذا الرجل (عبد الرحمان الحاج صالح) حقّه؟

لقد عرفته في مرحلة مبكرة، منذ أن كنت طالبة في الليسانس، رأيت رجلا يصول ويجول في تراث الخليل وسيبويه، وينافح ويدافع عن تلك الهوية بكلّ ما أوتي من قوة في وافر صحته وفي مرضه، فارتسمت تلك الصورة في ذهني بل انتقشت، كبرت وعرفت معنى الغربة والتغييب معنى أن يكون لديك هاجس اسمه أصالة التراث بعيون الحاضر والمستقبل، بعيون السبْق والإبداع، بعيون العلم والأدلة .

1.6. ملاحظات أولية: يمكن إجمالها في النقاط التالية:

–يتمّ تدريس النظرية الخليلية لطلبة الماستر تخصص لسانيات عربية في السنة الثانية وعلى الرغم من أننا نجد الحديث عن الخليل معجميا، وعروضيا، ونحويا في مرحلة الليسانس إلا أنّ ذلك يعوزه التنظيم، وبحاجة إلى سلك ينظمه يتمثل في تخصيص مادة مستقلة بالخليل وأمثاله حتى يستوعب الطالب كلّ ما يتصل بإنجازات هذه الشخصية مع ربطها بالدراسات الحديثة على مدار مراحل التدرّج.

–الحجم الساعي المخصّص لتدريس النظرية الخليلية يقابله (4) حصص، وهو حجم ضئيل لا يتّسع حتى للتعريف بالرجل، فما بالك بالمفاهيم والمصطلحات العلمية؟.

–يشتكي الطلبة من صعوبة اللسانيات وينفرون منها، لكنهم يتحمّسون عندما يتعلّق الأمر باللسانيات العربية، واستقصاء المفاهيم اللسانية في التراث اللغوي، بل يتنافسون في البحث عن تلك المفاهيم من خلال استقراء النصوص .

–توجّهات الأساتذة العلمية التي تنعكس على العملية التعلمية، فتارة نجد عند بعضهم الميل إلى القديم والتغني بأمجاد الماضي، ورفض كلّ ما هو جديد، وهذا اتجاه التقوقع –كما وصفه عبد الرحمان الحاج صالح–، وعلى النقيض عند بعضهم نجد ثقافة التبنّي للمنجز الحديث والاستهانة بالقديم، أمّا التوجّه الثالث فهو الذي اهتدى إلى ضرورة اتباع سياسة عدم الإقصاء، والتقصّي لكلّ ما هو إبداع وأصيل بالأدلة العلمية والمنطقية، وهو التوجّه الذي لطالما نادى به عبد الرحمان الحاج صالح .

2.6. الإجراءات: تتمثل فيمايلي:

–ضرورة فتح تخصّصات جديدة في الليسانس والماستر عنوانها: التراث العربي القديم، النظرية الخليلية، حوسبة اللغة العربية، المعجم اللساني العربي. الترجمة والمصطلح العربي، المدارس اللسانية العربية، ابستمولوجيا اللسانيات العربية.

–زيادة الحجم الساعي في تدريس النظريات اللغوية العربية القديمة مما يساعد على تعزيز الانتماء وإثبات الهوية، وتنمية القدرة على التحليل والنقد، وتفادي الاجترار المعرفي.

–تشجيع الطلبة على الممارسة الميدانية التي تسعى إلى تطوير العربية وتراثها في شتى الميادين، التعليمية، والحاسوبية، والمصطلحية.

–يجب القضاء على هيمنة كلّ تفكير متحيّز في ميدان الدراسات اللغوية، وإتاحة فرص الانفتاح والتشبّع بالأنساق المعرفية المختلفة من أجل تزويد رصيد الثقافة اللسانية العربية وتغذيتها على أسس علمية دقيقة تحليلا ونقدا.

–اقتراح جائزة عبد الرحمان الحاج صالح في الترجمة والمصطلح، أو في أصالة التراث العربي وعصرنته.

7.خاتمة:

في نهاية هذه المداخلة يمكننا رصْد أهمّ الملاحظات والنتائج فيمايلي:

- أكدّ عبد الرحمن الحاج صالح أصالة النظرية الخليلية من الداخل والخارج مما يتّضح معه التميّز والتفرّد أو التقليد.
- ألحّ عبد الرحمن الحاج صالح على ضرورة الالتزام بمبدأ العلمية في الدراسة ومعالجة النصوص.
- سعى عبد الرحمن الحاج صالح إلى محاولة إبراز الخصائص العلمية للجهود اللغوية العربية، وقد اهتم كثيرا بالآراء اللغوية والآليات التحليلية التي طبّقها الخليل بن أحمد الفراهيدي.
- بيّن عبد الرحمن الحاج صالح أهمية النظرية الخليلية في مختلف الآفاق العلمية، وخاصة في مجال الحوسبة.
- تتجلّى خصوصية النظرية الخليلية أكثر فأكثر في الجهاز المصطلحي والمفاهيمي الذي قامت عليه، والذي يضاهي – في كثير من الأحيان– ما جاءت به النظريات الغربية.
- للنظرية الخليلية مكانتها في الدراسات اللسانية الحديثة نظرا لاعتمادها على مجموعة من الآليات التفسيرية والإجرائية، ولهذا لا يفتأ عبد الرحمن الحاج صالح يدافع عنها، ويبرز معالمها بالأدلة المنطقية والرياضية.
- إنّ التراث اللغوي العربي القديم له قيمته الإبداعية المعرفية، والمنهجية، والإنتاجية، لذا يجب تعزيز الوعي بقيمته في مقابل الآخر (النظريات الغربية).
- لا يكتفي عبد الرحمان الحاج صالح بإحياء المصطلحات القديمة، وإنما أيضا يستعمل مصطلحات جديدة.
- إنّ ثنائية (الوضع والاستعمال) هي العمود الفقري للغة، والمدخل لقراءة التراث اللغوي العربي قراءة دقيقة أصيلة، والأداة الإجرائية لضبط المصطلح وترجمته.
- يجب توحيد الجهود وتكثيفها في شكل هيئات لا الاقتصار على مبادرات فردية للاضطلاع بمهمّة المسح الشامل للاستعمالات الكثيرة، والمدونات الواسعة.

8. قائمة المراجع:

1. الزايدي بودارمة. (2014). النظرية الخليلية الحديثة أسسها وحدودها المائزة. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، 9(17).
2. بشير إبرير. (فيفري, 2005). أصالة الخطاب في اللسانيات الخليلية الحديث. مجلة العلوم الإنسانية(7).
3. حسن خميس سعيد الملخ. (2000). نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين . عمان الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.
4. شفيقة العلوي. (سبتمبر, 2007). العامل بين النظرية الخليلية الحديثة والربط العاملي لنؤام تشومسكي. مجلة حوليات التراث(7).
5. عبد الحليم معزوز. (2017). تأصيل اللسانيات العربية عند تمام حسان وعبد الرحمان الحاج صالح دراسة ابستمولوجية في المرجعية والمنهج. أطروحة دكتوراه. جامعة باتنة، الجزائر.
6. عبد الرحمان الحاج صالح. (2012). الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية. وحدة الرغاية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
7. عبد الرحمن الحاج صالح. (1973). أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية. مجلة اللسانيات، 4(1).
8. عبد الرحمن الحاج صالح. (2007). بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (الإصدار 1). الجزائر: موفم للنشر.
9. عبد السلام المسدي. (2010). مباحث تأسيسية في اللسانيات. بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
10. محمد صاري. (2005). المفاهيم الأساسية للنظريةالخليلية الحديثة. مجلة اللسانيات، الجزائر، 10(2).
11. نبيلة دين. (2018). النظرية الخليلية للعلامة الحاج صالح: قراءة في الأسس والمفاهيم،. مجلة عود الند(9).
12. نبيلة قدور. (2019). النظرية الخليلية وإسهاماتها في معالجة مشكلات تدريس اللغة العربية. أطروحة دكتوراه. جامعة سطيف 2 الجزائر.
13. يحي بعيطيش. (2010). الكفاية العلمية والتعليمية للنظرية الخليلية الحديث. مجلة التواصل(25).